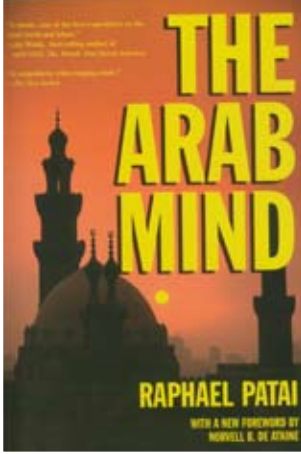


العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس



الفصل الأول

العرب والعالم

1. الإسلام، الشرق الأوسط، العرب

في كتابه الصغير المعنون (تحرير مصر: فلسفة الثورة) حدد جمال عبد الناصر موقع بلاده -مصر- بالنسبة للعالم في ثلاث دوائر متداخلة. وكانت الدائرة المركزية هي (الدائرة العربية) التي تضم مصر بالإضافة إلى «ما هو جزء منا، وما نحن جزء منه، وما كان تاريخنا جزءاً لا يتجزأ من تاريخه». أما الدائرة الثانية فتمثلت بالقارة الأفريقية التي ترتبط مصر بها بسبب الجغرافيا، ونهر النيل، والمسؤوليات القيادية، و«الوعي الأفريقي المتنور». أما الدائرة الثالثة «التي تشمل قارات ومحيطات فهي نطاق إخواننا في العقيدة»، وهي دائرة الإسلام. ومن الطبيعي أن يكون واضحاً للعيان أن هذه البنية قائمة بشكل أساسي على الأهداف السياسية التي وضعها عبد الناصر لمصر في الأيام الأولى التي تلت الإطاحة بالملك فاروق: إذ رأى بأن قدر مصر يحتم احتلال -وبالتالي قيادة- الجزء المركزي في هذه التجمعات الأممية الثلاثة التي تشكل العالم العربي، والأفريقي، والإسلامي.

من وجهة نظر ثقافية يمكن إثبات وجود اثنتين فقط من الدوائر المتداخلة التي أشار إليها عبد الناصر أما الثالثة فتصبح عديمة المعنى. فمصر تنتمي -كما هو واقع أية دولة عربية أخرى- إلى العالم العربي، بالإضافة إلى العالم الإسلامي الذي يكبر سابقه حجماً. ولكن أخذ العامل الثقافي بعين الحسبان يؤدي إلى إخراج مصر وباقي الدول العربية الأخرى التي تقع على الساحل الأفريقي للبحر الأبيض المتوسط من دائرة الانتماء إلى العالم الأفريقي. أما بالنسبة للسودان -وهي دولة عربية لها طابعها الخاص- فصورة الوضع فيها أقل وضوحاً، على الرغم من التعميم الذي يمكن إطلاقه حولها بأن ثلثها الجنوبي فقط

العقل العربي

الفصل الأول: العرب والعالم

ينتمي إلى افريقيا. أما الثلثان الشماليان الباقيان فهما يشكلان جزءا من العالم العربي. ثقافيا وعرقيا ولغويا.

وبينما نرى من وجهة نظر ثقافية أن الدول العربية ليس لها أي مشتركات - وإن وجدت تكون ضئيلة- مع أفريقيا السوداء. فإن هناك دائرة ثالثة تنتمي إليها كل الدول العربية. ويمكن ترتيب هذه الدائرة -من حيث الحجم- بين الدائرة العربية الأصغر. والدائرة الإسلامية الأكبر. وهذه الدائرة الثالثة المتوسطة هي دائرة الشرق الأوسط. وهي عبارة عن رقعة من الأرض يحددها الطابع الثقافي بشكل واضح وتموضع جغرافيا بين أوربا وأفريقيا السوداء ووسط وجنوب آسيا.

ترتكز الدائرة الإسلامية على الديانة التوحيدية العالمية العظيمة التي أوجدها النبي العربي محمد (570-632م). ولقد أدت موجة الانتصار الإسلامي التي اجتاحت جزءا كبير من العالم القديم بعد وفاة النبي محمد بعدة عقود. إلى تشكيل ظاهرة فريدة في تاريخ الإنسانية. واستمرت السيطرة الإسلامية إلى القرن الخامس عشر عندما أجبرت على الانسحاب من اسبانيا أمام المسيحية. أما في هنغاريا فقد استطاعت قوة إسلامية -هي الأتراك- أن تبقى مسيطرة هناك لغاية القرن الثامن عشر. أما في البقاع الأخرى. وخاصة وسط أفريقيا. فقد استمر الإسلام بالانتشار. وفي يومنا هذا يدين من سبع إلى سدس البشرية بالإسلام. أو -بأرقام مجردة- حوالي 400-500 مليون نسمة. وفي منطقة شاسعة تمتد تقريبا من الشاطئ الأفريقي للمحيط الأطلسي إلى باكستان الشرقية (بنغلادش). ومن آسيا الوسطى إلى الصحراء الأفريقية. نجد أن الإسلام هو دين حوالي 90% من سكان هذه المنطقة. كما هو الحال في باكستان الشرقية (بنغلادش) وإندونيسيا. وعلى محيط هذه الكتلة الإسلامية المتينة توجد منطقة كبيرة متاخمة لها يعتنق الإسلام أكثر من نصف سكانها. وهذه المنطقة -بالتالي- محاطة بحلقة أخرى من المناطق التي توجد فيها أقليات مسلمة كبيرة العدد.

العقل العربي

الفصل الأول: العرب والعالم

وفي داخل العالم الإسلامي تقع الدائرة الثانية: الشرق الأوسط. وفيما عدا الحدود البحرية، فإن الشرق الأوسط محاط من جميع الجهات بمناطق تشكل جزءاً من «دار الإسلام». وبينما يقتبس العالم الإسلامي هويته من الدين الإسلامي لوحده، فإن الشرق الأوسط ليس مفهوماً دينياً بل ثقافياً: إنه -كما ذكرت في موضع ما- «قارة ثقافية» يتسم بتكوين ثقافي مميز. وإحدى أهم خصائص هذا التكوين: الإسلام (بما أن الإسلام لوحده لا يكفي لتثبيت الناس في رقعة الشرق الأوسط).

وبالتأسيس على مقياس ثقافي محدد، يمكن القول بأن الشرق الأوسط يتكون من المنطقة التي يحدها من الشرق: المحيط الأطلسي، ومن الشمال: البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والقوقاز وبحر قزوين والجمهوريات السوفييتية [سابقاً] تركمانستان وكازاخستان وطاجكستان، ومن الشرق: نهر السند، ومن الجنوب الشرقي: البحر العربي، ومن الجنوب: النطاق السوداني. وتوجد في العديد من دول الشرق الأوسط أقليات مسيحية كبيرة معتبرة، بالإضافة إلى بقايا من أقليات يهودية، بخاصة في تركيا والمغرب. إن نصف سكان لبنان تقريباً هم مسيحيون، أما إسرائيل فهي تتكون من شعب يهودي أساساً.

ومن دون أن نغفل وجود وأهمية الأقليات غير المسلمة، فإنه يمكن القول بأن الشرق الأوسط بشكل عام: مسلم، كما هو الحال في قولنا بأن أوروبا وأمريكا: مسيحيتان. كما يمكن أيضاً تقدير نسبة المسلمين في الشرق الأوسط بـ 90% مع الأخذ بعين الاعتبار كافة المحاذير الناتجة عن التعامل مع الأرقام المتعلقة بمنطقة تفتقر بشدة إلى الإحصائيات.

أخيراً نأتي إلى العالم العربي، فنبدأ بالقول بأنه كما هو الشرق الأوسط محاط بالعالم الإسلامي، فإن العالم العربي محاط بالشرق الأوسط. وبتعبير آخر: يشكل العالم العربي نواة الشرق الأوسط، إن المسطحات المائية الكبرى -البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والبحر العربي- تحيط بالعالم الإسلامي والشرق الأوسط بالإضافة إلى العالم العربي، ولكن الجانبين الشمالي والشرقي يحتويان على دول شرق أوسطية مسلمة غير عربية

العقل العربي

الفصل الأول: العرب والعالم

متاخمة للعالم العربي: وهي تركيا وإيران وباكستان. أما في الجانب الجنوبي -الأفريقي- فإن العالم العربي يفسح المجال تدريجيا لمناطق شرق أوسطية مسلمة غير عربية مثل دول الصحراء ودول السودان.

إن العالم العربي نفسه ينقسم جغرافيا إلى قسمين رئيسيين: يقع أحدهما في جنوب غرب آسيا، ويقع الثاني في شمال أفريقيا. إن القسم الذي يقع في جنوب غرب آسيا، بالإضافة إلى مصر، يتسم بالسيطرة الكاملة تقريبا للغة العربية على ألسنة السكان. وإلى الغرب من مصر، وعلى طول الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط تقع دول (شمال أفريقيا) العربية والتي تحتوي أقليات معتبرة لا تزال محتفظة باللغة البربرية كلغة أم، بالإضافة إلى أن الطبقات المتعلمة في هذه الدول تتقبل التعامل باللغات الأوربية -وبخاصة اللغة الفرنسية- بشكل يفوق ما هو عليه الحال في الدول العربية الآسيوية ومصر.

تصطف خمس من الدول العربية على خط الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط: المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر. وإلى الجنوب من مصر تقع الدولة العربية الأكبر: السودان. وإلى الشمال الشرقي تقع دول الهلال الخصيب: الأردن ولبنان وسوريا والعراق. بينما تقع إلى الشرق مباشرة: الجزيرة العربية. وهي تتكون من المملكة العربية السعودية واليمن واليمن الجنوبي [سابقا] وإمارات الخليج العربي. إن المساحة الإجمالية لهذه المنطقة تبلغ 4.658.063 ميل مربع، وفي عام 1970 كان يسكنها حوالي 121 مليون نسمة.

2. من هم العرب

من بين الدوائر الثلاث الراسخة (العرب، الشرق الأوسط، الإسلام)، فإن الأولى والثالثة هما اللتان تتجسدان في الوعي العربي فقط. إن العرب مطلعون بشكل جيد على الدائرة الثانية، وفي الواقع، يواجه القارئ عبارة (الشرق الأوسط) كثيرا لدى قراءته للكتابات السياسية العربية الحديثة، لكن هذه العبارة تم اقتباسها وترجمتها من اللغات الأوربية، وبخاصة من اللغتين الانكليزية والفرنسية، حيث بدأ استعمال هذه العبارة بالرواج خلال الحربين

العقل العربي

الفصل الأول: العرب والعالم

العالميتين. وبما أنه ليس لهذه العبارة أصل محلي عربي، فإن هذا يدعو للتردد في الجزم بوجود مفهوم ضمن العقل العربي يحدد هذه المنطقة كمكان لبنية ثقافية محددة.

إن كلمة «العرب» كانت تشير في عصور ما قبل الإسلام إلى سكان شبه الجزيرة العربية والصحراء السورية. حيث ظهرت هذه العبارة في السجلات الآشورية: ففي سنة 854 ق.م. انضم غنديبو العربي ومعه ألف مقاتل على الجمال إلى بيرعدري الدمشقي (والذي ما هو إلا بن حداد المذكور في الكتاب المقدس) للقتال ضد شلمانصر III في معركة قرقر. وفي هذا الظهور التاريخي الأول للعرب تراهم مترافقين مع الجمال -ومن الجلي هنا أنهم كانوا من بدو الصحراء الذين يرعون الجمال- وخلال القرون الثمانية والعشرين التي تلت لم يتوقف الارتباط بين العرب والصحراء أبدا. «كعربي في الصحراء» تشبيه ورد في سفر ارميا (3:2) والذي يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد. وبنبرة يستعملها من يعبر عن حقيقة معروفة جيدا. وقبل أكثر من قرن من سلفه. أشار إشعيا في سفره (13:20) إلى «عربي ينصب خيمته» مما يفترض وجودا عربيا رعويا مترحلا يسكن الصحراء. إن الارتباط ما بين المفهوم ما بين «العرب» و«البدو» وجد واستمر حيث ضاق الفرق بينهما بحيث كثيرا ما نجد الكاتب العربي يستخدم كلمة «العرب» للدلالة على معنى يريد به «البدو». وهكذا قام ابن خلدون. المؤرخ الشهير في القرن الرابع عشر. باستعمال كلمة «العرب». وهكذا ما زال البدو يسمون أنفسهم إلى يومنا هذا.

إن تأسيس الإسلام على يدي النبي محمد (570-632م). ونشر الإسلام في شبه الجزيرة العربية خلال حياته. وسم بداية توسع عربية عريضة النطاق إلى خارج شبه الجزيرة العربية والصحراء السورية. وبدءا من هذا التاريخ. اكتسبت كلمة «العرب» معنى ثانيا: فقد جاءت لتدل على جميع الشعوب التي تخلت عن لغات أسلافها وتبنت اللغة العربية بعد أن اعتنقت الإسلام. وبشكل متزامن مع ذلك. فقد العرب الذين فتحوا الأرض الجديدة. خصائصهم القبلية الأصلية. واستقروا وأصبحوا من سكان المدن. إن مصير اللغة العربية في هذه البلدان الجديدة اختلف من مكان لآخر. لكن يمكن القول بشكل عام بأنه في

العقل العربي

الفصل الأول: العرب والعالم

العديد من البلدان تضاءلت تدريجيا القدرة على التمييز المباشر بين السكان الأصليين والفاثحين العرب. إلى أن اختفت. وخلال فترة قصيرة أصبح العرب المكون البشري الوحيد -أو الغالب- في منطقة شاسعة تمتد من شمال افريقيا وجنوب غرب آسيا.

لقد سعى الكثير من العلماء، عربا وغربيين. في سبيل الإجابة على هذا السؤال: «من هم العرب؟» وكانت الإجابات غالبا ما تتضمن واحدا أو أكثر من المعايير التالية: العرب هم من يتكلمون اللغة العربية، ونشؤوا في البلدان العربية، ويؤمنون بتعاليم النبي محمد، ويفتخرون بتراث الامبراطورية العربية، وينتمون إلى أحد الشعوب العربية.

إن التفكير للحظة في هذه المعايير يكفي ليتبين القارئ بأن بين من جميع المعايير السابقة، فإن المعيار اللغوي لوحده يعبر بشكل جيد عن كل العرب ولا يدمج بهم عناصر بشرية أخرى. فالأشخاص الذين يتكلمون اللغة العربية كلغة أم ربما يكونون قد نشؤوا ضمن ثقافات غير عربية (كالثقافة الفرنسية في شمال افريقيا) لكنهم لا يزالون يعتبرون أنفسهم عربا ويعتبرهم الآخرون كذلك. وهم قد يقيمون في بلدان غير عربية -لاحظ العدد الكبير من العرب الذين يسكنون فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية ودول أمريكا اللاتينية وغيرها- لكنهم يظلون عربا. وقد لا يكونون من المؤمنين بنبوة النبي محمد -كما هو حال المسيحيين العرب- ومع ذلك فهم يحملون شعورا قويا بكونهم عربا ويتحدد توجههم الوطني كما هو حال أي مسلم عربي. وهناك الكثير من العرب الذين لا يفخرون بتراث الامبراطورية العربية بسبب انتمائهم الشيوعي أو لأسباب كثيرة أخرى. وأخيرا فإن ثمة العديد من العرب الذين هاجروا إلى دول أخرى وحصلوا على جنسيتها وأصبحوا أعضاء في أمم أخرى. دون أن يفقدوا هويتهم العربية بسبب ذلك. وفي سياق مشابه، يمكن للمرء أن يشير إلى وجود أفراد وجماعات يحققون كل أو بعض المعايير المذكورة ولا يعدون من العرب، ومثال ذلك القبط المسيحيون في مصر، واليهود في كافة الدول العربية.

العقل العربي

الفصل الأول: العرب والعالم

ولهذا السبب ورغبة بتعريف أفضل. فسنعتمد التعريف الذي اقترحه جبرا إبراهيم جبرا. وهو ناقد وروائي وشاعر بغدادى. للظاهرة المتمثلة في أن العربي هو «كل من يتكلم اللغة العربية باعتبارها لغته الأصلية. ولذلك يحس بأنه عربي.»

مهما يكن. فإن ذلك الرأي مهم جدا لأنه يبين الصورة كما يراها العرب. فهم لا يعتبرون أنفسهم أمما منفصلة متعددة أو شعوبا تعيش في كيانات سياسية منفصلة. ففي وجهة النظر العربية التي نشأ عليها جيل واحد ينتمي إليه معظم القادة العرب: يشكل العرب أمة واحدة (الأمة العربية) ويعتبر تقسيم الوطن العربي الواحد إلى العديد من الدول المنفصلة وضعا مؤقتا يجب -وسيتم- القضاء عليه عاجلا أم آجلا. وفي هذا الاعتقاد النظري أو المثالي يصبح جميع العرب إخوة وأبناء لأمة واحدة. أي يشكلون «قوما».

أما بالنسبة للإسلام فإن جميع العرب المتعلمين -وحتى أنصاف المتعلمين- يعلمون بأنه يضم -بالإضافة للعرب- أمما غير عربية ضخمة التعداد. والعرب -بالطبع- يعتبرون أنفسهم نواة الأمم المسلمة انطلاقا من كونهم الأمة التي ولد فيها الإسلام والتي حملت على عاتقها مهمة نشره على مستوى العالم. وينقسم العالم في وجهة النظر العربية التقليدية إلى جزأين: جزء داخلي «دار الإسلام» وجزء خارجي «دار الحرب». وفي اللغة العربية يبدو التضاد بين «الدارين» أكثر وضوحا وتأثيرا مما هو الحال عند الترجمة للانكليزية. لأن كلمة «الإسلام» في اللغة العربية تحمل دلالة الجذر الذي اشتقت منه وهو «السلام». وبالتالي فإن معنى «الدارين» عند العرب يوصل مفهوم التضاد بين «السلام الداخلي» و«الحرب الخارجية». ويتطابق الحال هنا مع مفهوم «السلام الروماني Pax Romana» الذي كان يطلق على وضع الأراضي «المسالمة» التي تفصلها «الحدود» عن ما وراءها من الأراضي التي كان يسيطر عليها البرابرة الهمجيون.

وتحت تأثير الهيمنة الغربية والاختراق الكاسح الذي حققه النفوذ الغربي. اندثر مفهوم «دار الحرب» في القرن العشرين حتى عند العرب التقليديين. ليبقى في أذهان المستغربين

العقل العربي

الفصل الأول: العرب والعالم

وحدهم. ولكن إذا كان مفهوم دار الحرب لم يعد موجودا فإن التمييز ما بين المسلمين والكفار بقي وبصورة حادة.

خلاصة القول: إن وجهة النظر العربية حول العالم يمكن تمثيلها بثمرة تتكون من 3 أقسام: ففي المركز هنالك النواة والجزء الأعز وهو العالم العربي. ثم يحيط به لب الثمرة وهو العالم الإسلامي الذي يغلف النواة العربية بما يشبه الغطاء الواقعي. ثم في الخارج تأتي القشرة: العالم غير الإسلامي.

بقيت هناك نقطة أخيرة، فعلى الرغم من الاختلاف التاريخي بين العالمين العربي والإسلامي، يميل العرب دوماً إلى خلط العروبة بالإسلام والإسلام بالعروبة. وهذه النزعة لا تلاحظ فحسب عند العرب غير المثقفين الذين لا يتوقع منهم أن يعرفوا الكثير عن وجود المسلمين غير العرب. بل ضمن الطبقة المثقفة أيضاً. فكتابات أحد المفكرين العرب المرموقين جداً، وهو محمد كرد علي (1876-1953م) يمكن أن يشار إليها على أنها مثال لغياب هذا التمييز: فهذا العالم السوري البارز، الذي كان لسنين عديدة رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، ألف -ضمن كتب أخرى- كتاباً عنوانه (الإسلام والحضارة العربية) والذي نشر في جزأين في القاهرة عامي 1934 و1936م. وقد يتوقع المرء من كتاب يحمل هذا العنوان أن يفرق بدقة ما بين العرب والمسلمين، ما بين أكبر وأصغر الدائرتين. ما بين الجزء والكل. وعلى أية حال، لم يكن هذا هو الغرض من الكتاب. فأتناء سعيه للتمييز ما بين «العربي» و«البدوي» ارتكب كرد علي جرم الخلط في استعمال كلمتي «العربي» و«المسلم» على امتداد صفحات الكتاب. إن ما سبق يعد خصيصة مهمة من خصائص الإدراك العرقي لدى الدارسين العرب للتاريخ العربي. فالإسلام، الذي هو في الأصل ديانة العرب، بقي مشخصاً بواسطة الوجود العربي إلى حد جعل من المستحيل عملياً بالنسبة لهم أن يميزوا بين الاثنين على الرغم من حقيقة أنهم يعرفون بالطبع أن الإسلام أجرى تطويرات مهمة على العنصر العربي.